

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾
 وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّالِعِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيُبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا
 يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفِاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا القرآن العظيم، نزل قولاً ثقیلاً، محكماً، رصيناً، على قوم كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء،
 وضلالة عمياء، على قوم لا يرون موتاً، ولا بعثاً، ولا حياة، ولا نشوراً. قوم يقول قائلهم: إنما هي
 أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر! يأكلون، ويتمتعون كما تأكل الأنعام وتتمتع.

فلما أراد الله بهم خيراً، بعث فيهم هذا النبي العظيم، وأنزل إليه هذا القول الكريم؛ ليخرجهم من
 غفلتهم، وسدرتهم، فحرك أذهانهم، وهز كياناتهم، وأيقظهم من غفلتهم، ورقدتهم، ولفت انتباههم إلى
 ما في هذا الكون من الآيات البينات، والحجج الباهرات، ليستدلوا بها على أن الله وحده، هو المستحق
 للعبادة، وأنه لا يمكن أن يخلق هذا الكون سدى، ولا عبثاً، بل لحكمة بالغة. فلما قرر الله ﷻ ذلك فيما

تقدم من الآيات، ختمها بآيتين، هما كالوصلة للآيات التاليات، فقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا

﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾. وفي هذا ملحظ بديع! كأن الله تعالى يقول: انتبهوا! هذه
 الجنات الألفاف، أخرجها الله من أرض موات! فالقادر على أن يُحيي الأرض بعد موتها، قادر على أن
 يخرجكم من قبوركم أحياء، كما قال الله في سورة (ق)، بعد أن ذكر إنزال المطر وإنبات الجنات وحب

الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد، قال بعد ذلك: ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ١١]

* قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد، فهذه جملة مؤكدة، جملة تامة، ذات دلالة قوية.

و﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو: يوم القيامة. وهذا أحد أسماؤه. وأسماء يوم القيامة كثيرة جداً، وقد عدَّ
 القرطبي: منها ثمانين اسماً، وعدَّ ابن كثير: خمسين اسماً. وهذه الأسماء بعضها مبثوث في كتاب الله،
 وبعضها في سنة رسول الله ﷺ، وبعضها أوصاف أطلقها بعض العلماء. فما جاء في كتاب الله ﷻ:

(يوم الدين)، (يوم التغابن)، (الطامة)، (الصاخة)، (يوم التلاق)، (الحاقة)، (الغاشية)،
(القارعة)، (يوم الحساب)، (يوم التغابن)، (يوم الحشر)، (يوم الآزفة)، و(يوم الفصل) كما هاهنا. فهي
كثيرة جداً. وهذه الكثرة ليست فقط كثرة في الأسماء، بل وفي الدلالة، فإن كل اسم من هذه الأسماء
يُعطي دلالة معينة: -

ف(القارعة)؛ لأنها تفرع القلوب.

و(الصاخة)؛ لأنها تصخ الأذان.

و(الآزفة)؛ لقربها. وهكذا في كل اسم من هذه الأسماء. فهي أعلام وأوصاف، وهذه الكثرة في
الأسماء، تدل على عظيم العناية بالإيمان باليوم الآخر.

فقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي: الفصل بين الخلائق؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل في
المظالم، فينال الظالم جزاء ظلمه، ويُعوض المظلوم عن مظلمته. فالفصل يتناول كل ملتبس.

وقوله: ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي: أنه موعد مؤقت، قد وقته الله تعالى، وعلم زمن حصوله، ولكنه أخفاه.
ولهذا اعتذر النبي ﷺ من جبريل، حين سأله عن الساعة، فقال: "مَا الْمُسْتَوَّلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"
"متفق عليه"^(١)، فأعظم رسول بشري، وأعظم رسول ملكي، كلاهما لا يعلمان متى الساعة، كما قال الله
عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَنًا ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤]،

وفي الآية الأخرى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾
[الأعراف: ١٨٧]. ولما سأل أعرابي النبي ﷺ عن الساعة، متى الساعة؟ قال ﷺ: "وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟" متفق
عليه^(٢)، فلم يقل في يوم كذا، وكذا. فالله تعالى قد أخفى عنا الساعة، إلا أنا نعلم أنها تأتي بغتة، وأنها
مجهولة الموعد، وأنها شديدة الوقع. فالساعة يخاف منها المؤمنون، لتعظيمهم لله سبحانه وتعالى قال ﷺ:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٧)، صحيح مسلم (١٠).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٨٨)، صحيح مسلم (٢٦٣٩).

[الشورى: ١٧-١٨]. والساعة كما سبق، لا تأتي إلا بغتة، حتى إن النبي ﷺ قال: "وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ

وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتْبَاعِيَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِحْفَتِهِ، فَلَا يَطْعَمُهُ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ، فَلَا يَسْقِي فِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا" رواه البخاري^(٣). فأمرها يقع فجأة، وسرعة. وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ". قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْبْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْبْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْبْتُ. قَالَ: "ثُمَّ يُنَزِّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَيْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" متفق عليه^(٤). فابن آدم يتحلل، ويفنى، ويعود تراباً، ولا يبقى منه إلا عجب الذنب؛ وهو العصعص، فيحفظ الله تعالى في هذا المتبقي منه، الصفات الوراثية التي منها يركب الخلق.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ هذا بيان وتوضيح، أي: أن يوم الفصل هو يوم

ينفخ في الصور، وأتى بصيغة الفعل الذي لم يُسمِّ فاعله، لتفخيمه وتعظيمه. و﴿الصُّور﴾ هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، النفخة الأولى، التي يكون بها الصعق، والنفخة الثانية، التي يكون بها النشر. وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: "كَيْفَ أَنْعَمَ! وَقَدْ التَّمَّ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ" رواه الترمذي^(٥) أي: كيف أنعم، وأهنأ بالعيش، وصاحب القرن، إسرافيل عليه السلام، قد التقم قرنه، أي: وضعه في فيه، استعداداً للنفخ، ينتظر أن يؤمر. فالذي يذكر هذا، لا يطيب له عيش، لأنه يخشى وعيد الله ﻋﻠﻴﻪ.

ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ مشهد مهيب، رهيب، فإن البعث أمره عجيب: كل من دب على وجه الأرض، ثم مات، وتحلل فيها، يجمع الله خلقه يوم القيامة، فيبعث الناس حفاة، عراة، غرلاً، بهماً، ويقومون لرب العالمين، يساقون على هيئة أفواج؛ زمراً زمراً! وتحيل هذا الحشد العظيم؛ من لدن آدم، عليه السلام، طوله ستون ذراعاً في السماء، ثم لم يزل الخلق ينقص بعد ذلك، إلى أن آل إلى ما نحن عليه، ولا ندرى إلى ما يؤول أيضاً بعدنا، في موكبٍ واحد، على صعيد واحد، على

(٣) صحيح البخاري (٦٥٠٦).

(٤) صحيح البخاري (٤٨١٤)، صحيح مسلم (٢٩٥٥).

(٥) سنن الترمذي (٢٤٣١) وقال هذا حديث حسن، مسند أحمد (٣٠٠٨) وصححه الألباني.

تفاوت أحجامه، وأطواله، وألوانه مع الدواب والعشار والحوام والطيور وسائر المخلوقات! وقوله تعالى: ﴿أَفَوَجَأَ﴾ أي: فوجاً إثر فوج، والفوج: هم الجماعة من الناس. وقارن بين تلك الصورة التي ذكرها سابقاً، من حال الدنيا واستقرارها، بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ٨ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ٩ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ١٠ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ١١ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ١٢ [وهذا الانقلاب الكوني الهائل .

ثم قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾: فهذه السماء التي لا ترى فيها الآن ثقباً، ولا قدر جب الإبرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ٣ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنًا يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ ٤ [الملك: ٣، ٤]، فإذا بهذه السماء المحكمة، المتناسكة، المبنية، تنشق يوم القيامة، وتفتح فيها فرج، وطرائق؛ ليهبط منها الملائكة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَشْفِقُ السَّمَاءَ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا﴾ ٢٥ [الفرقان: ٢٥]، فتتشق كل سماء، ويهبط ملائكتها، فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم. وفي قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ﴾، و﴿يُنْفَخُ﴾، وما بعدهما، كلها بصيغة الفعل الذي لم يُسمَّ فاعله، وذلك من باب التفخيم والتعظيم.

قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، فهذه الجبال التي قال عنها قبل بضع آيات: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧، هذه الجبال الراسيات، تسير بعد أن كانت تحفظ توازن الأرض، وتضبط استقرارها. والسراب إما أن يكون المراد به الهباء، أو هو تشبيه له بالماء، وليس بهاء، كالذي يراه المسافر في شدة الحر، يزول أمامه يظنه ماء، يحسبه الظمان ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. فهذه الجبال تتراءى لأهل الموقف على هذه الصورة؛ كالسراب. وهذا حال من أحوال الجبال يوم القيامة، ذلك أن الجبال يمر بها يوم القيامة أحوال متعددة؛ منها التسيير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرٌّ السَّحَابُ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، حال الدك، والنسف، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ١٠٥ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ١٠٦ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ١٠٧ [طه: ١٠٥-١٠٧] وقال في آية أخرى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ ٥ [الواقعة: ٥]، أي: نثرت، ودكت، حتى تصبح كالرماد.

إلى أن يتحول وجه البسيطة قاعاً صنفصفاً، ليس فيه معلم لأحد؛ ليس فيه مرتفع، ولا منخفض، بل تصبح الأرض كالقرصة المستوية .

ثم قال الله ﷻ: **[إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا]** جهنم: اسم من أسماء النار، وللنار أسماء كثيرة، وكل اسم من أسمائها يدل على وصف، وحال. ومن أشنع أسمائها **[جَهَنَّمَ]**، وهي من الجهومة، والسواد. ومعنى **[مِرْصَادًا]** أي: مكان رصد، وترقب. فهي مترصد لا يجاوزها أهلها حتى يقعوا فيها.

وذلك أن ما من أحد، إلا ويرد على النار، يقول الله ﷻ: **[وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧١]** [مريم/ ٧١] أي: إلا مار فوقها، وذلك حين يؤمر الناس بالجواز على الصراط، وهو من أصعب مواقف يوم القيامة، حتى قال ﷺ " وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهْمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ " متفق عليه^(٦) .

أما أهل النار، الذين هم أهلها، فقد دلت النصوص على أنهم يلقون فيها؛ تجمع أيديهم إلى أعناقهم، ثم يقذفون فيها. وإنما يمر فوق الصراط، الموحدون. فمن سبقت له من الله الحسنى، فإنه يجوزه، دون أن يصيبه شيء. فمنهم من يمر كالمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح المرسله، ومنهم من دون ذلك، ومنهم من تخطفه كالليب على جنبتي الصراط، فتهوي به في النار، عن حذيفة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ " ...يَمُرُّ أَوْلَكُمْ كَالْبَرْقِ «. قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرُّ الْبَرْقِ قَالَ « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرُّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرُّ الطَّيْرِ وَشَدُّ الرَّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَاهُمْ وَنَبِيِّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا - قَالَ - وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَاللَّيْبِ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ " رواه مسلم^(٧) . فلهذا كانت **[مِرْصَادًا]**، فهي مرصد للطاغين الذين هم أهلها، وكذلك لمن أراد الله ﷻ، أن يعاقبه بقدر ذنبه، من عصاة الموحدون.

وقوله تعالى: **[لِلطَّغْيَانِ مَثَابًا]** الطغيان هو مجاوزة الحد، فإذا تجاوز العبد حده كان حقيقاً بالعذاب، إلا أن يتجاوز الله تعالى عنه. والله يمكن أن يتجاوز عن كل شيء إلا عن ذنب واحد، هو الشرك، قال

^(٦) صحيح البخاري (٨٠٦)، صحيح مسلم (١٨٢).

^(٧) صحيح مسلم (١٩٥).

تعالى: [**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** (٤٨)]

[النساء: ٤٨]. لكن لا ريب أن مرتكب الكبيرة مجازف، مخاطر. ومعنى [**مَتَابًا**] أي: مرجعاً، ومصيراً. فالأوب: بمعنى الرجوع، والمصير.

وقوله تعالى: [**لَلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** (٦٣)] معنى [**لَلَّذِينَ**] أي: ماكثين، و[**أَحْقَابًا**] جمع حقب. والمقصود بالأحقاب: المدد الطويلة. وقد ورد تقديرها في أحاديث مرفوعة، وموقوفة، وآثار عن بعض التابعين؛ فمنهم من قال: الحقب: ثمانون سنة، كل سنة فيها اثنا عشر شهراً، كل شهر فيه ثلاثون يوماً، وكل يوم بألف سنة. ومنهم من قال: سبعون سنة، على التقسيم السابق. ومنهم من قال: أربعون. ومنهم من قال أكثر، ومنهم من قال أقل. وعلى أي حال، فالأحقاب تدل على مدد طويلة، لكن ها هنا إشكال! فربما قال قائل: وماذا بعد الأحقاب؟ أيجرح أهل النار، الذين هم أهلها، منها، أم لا؟ فالذين فسروا الأحقاب بالمدد الطويلة، خرجوا من هذا الإشكال، بأن قالوا: المراد بأنهم [**لَلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**] أي: حقباً إثر حقب، بحيث لا يتناهى، فهو خلود مستمر، لا انقطاع فيه. وأما من قال: إن أهل النار، الذين هم أهلها، يخرجون منها بعد مدد طويلة، فربما استدل بهذه الآية على خروجهم^(٨). لكن الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة، أن أهل النار، الذين هم أهلها، أي: الكفرة، والمشركون، لا يخرجون منها أبداً؛ لأن الله ﷻ ذكر التأييد في خلودهم، في كتابه، في ثلاثة مواضع قال تعالى [**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ**

يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)] **إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** (١٦٩)]

[النساء: ١٦٨-١٦٩] وقوله تعالى [**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** (٦٤)] **خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً**

وَلَا نَصِيرًا (٦٥)] [الأحزاب: ٦٤-٦٥] وقوله [**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** (٢٣)]

{الجن: ٢٣}. وذهب ابن جرير الطبري، رحمه الله، إلى توجيه آخر، فقال: وقد يحتمل أن يكون معنى

ذلك: [**لَلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**] في هذا النوع من العذاب هو أنهم [**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا** (٢٤)]؛ فإذا

انقضت تلك الأحقاب، صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك، كما قال جل ثناؤه في كتابه: [**هٰذَا وَإِنَّكَ**

لِلظٰلِمِينَ لَشَرٌّ مَّتَابٍ (٥٥)] **جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُونَهَا** (٥٦)] **هٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ** (٥٧)] **وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا**

(٨) انظر شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦٥١).

﴿٥٨﴾ {ص: ٥٥-٥٨} وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية. ^(٩) فيكون هذا التحديد، بهذه المدة، يختص بلون، ونوع، من أنواع العذاب.

ومعنى [بَرْدًا]: الهواء البارد، أو الماء البارد. وقيل: إن المقصود بالبرد: النوم، فإن العرب تسمي النوم برداً. وقوله: [إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا] هذا الاستثناء استثناء منقطع، لأنك لو رفعت [إِلَّا] ووضعت بدلاً منها (بل) صح المعنى، أي: [لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا] ﴿٢٤﴾ بل يذوقون [حَمِيمًا وَعَسَاقًا] والحميم هو الماء المتناهي في الحرارة، شديد الغليان، حتى إن أحدهم، والعياذ بالله، إذا استسقى، أتى بالحميم ليشربه، فتسقط جلدة وجهه فيه، كما أخبر الله، ﷻ، عن ذلك في سورة الكهف، وغيرها، قال تعالى: [وَأَن يَسْتَعِينُوا يَخْتَرِقُونَ بِمَاءٍ كَأَلْمُهِلٍ بِشْوَى الْجُوهِ] [الكهف: ٢٩]، وقال: [وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ] [محمد: ١٥] فهذه سقيا أهل النار، والعياذ بالله، الحميم، وبئس الشراب. وأما العساق، فقد ورد ذكره في القرآن في غير هذا الموضع، قال تعالى: [هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ] ﴿٥٧﴾ [وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا] ﴿٥٨﴾ [ص: ٥٧-٥٨]. فالعساق، المراد به صديد أهل النار، وما يخرج من قيعهم، وجروحهم، ودموعهم، وغير ذلك من أذاهم، الذي يساق إليهم. وقيل: إن العساق معناه: المنتن. ولا تنافي بين المعنيين، فإنه يكون من صديد أهل النار، وقروحهم، وجروحهم، ويكون أيضاً منتناً. ووصف أيضاً بأنه بارد، فهو يأتيهم على هذه الصفة ويكون بارداً، منتناً، والعياذ بالله.

قال تعالى: [جَزَاءً وَفَاقًا] ﴿٢٦﴾ أي أن هذا الذي نالوه، إنما هو بسبب كفرهم بالله، ﷻ، [وَفَاقًا] على ما قدموا من سالف أعمالهم السيئة، والجزاء من جنس العمل. ثم علل الله تعالى، استحقاقهم لهذا العذاب الشنيع، فقال سبحانه: [إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا] ﴿٢٧﴾ أي: كانوا في الدنيا لا يخافون، فيرجون هنا، بمعنى يخافون. وإنما فسرت [لَا يَرْجُونَ] بمعنى يخافون، لأن الرجاء جاء هنا منفيًا، فإذا جاء الرجاء منفيًا، فإنه بمعنى الخوف، لأنه رجاءٌ يُخَافُ ألا يتم. ليس المقصود يرجون أي: يتمنون وييغون ويطلبون، كلا، بل المقصود ضد ذلك، وهذه قاعدة مطردة في القرآن العظيم. فقوله: [إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا] ﴿٢٧﴾ أي كانوا ينكرون البعث، حتى إن أحدهم، وهو أبي ابن خلف، أتى النبي

^(٩) تفسير الطبري (٢٦/٢٤).

ﷺ ، بعظم بالٍ، ففته أمامه وقال: يا محمد! أتزعم أن ربك يجيي هذا بعد أن صار رمياً؟ قال: نعم،
يبعثك ويدخلك النار^(١). وأنزل الله في شأنه: **[وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ
رَمِيمٌ]** [يس: ٧٨]

قال تعالى: **[وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا]** [٢٨] أي: إن آياتنا قد جاءتهم تلوح كالشمس؛ ظاهرة، مبهرة،
لكنهم كذبوا بها! فلا عذر لهم. وقوله: **[كِذَابًا]** تأكيد، وإن كان من غير فعله، لأن (كذب) مصدره
تكذيباً، لكن يصح أن يأتي المصدر من غير فعله، فقوله: **[وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا]** كناية عن شدة تكذيبهم.
وقد كانوا كذلك؛ فإنه يأتيهم الحق البين، يسمعون القرآن ينزل على نبينا ﷺ، ويفلق لهم القمر فلقتين،
ويأتيهم بالآيات الواضحات، فلا يزيدهم ذلك إلا كفرًا، وتكذيباً.

قال تعالى: **[وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا]** [٢٩] فلم يخرج عنه شيء أبداً، فكل شيء أحصاه الله ﷻ،
ومعنى **[أَحْصَيْنَاهُ]** أي: ضبطناه، وعددناه، وحفظناه؛ لأن أحصى تأتي بمعنى العد، كقول الله ﷻ:
[وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا] [إبراهيم: ٣٤]، ويأتي بمعنى الضبط، كتسمية العرب للعقل حصاة،
فهو يدل على التعقل، والحفظ، وقوله: **[كِتَابًا]** أي: مكتوباً، وهذا من تمام عدله سبحانه وتعالى. ولو
شاء الله سبحانه وتعالى، لما كتب ذلك، لكن من باب إقامة العدل، وإظهار الحجّة، قال تعالى: **[وَوَضَعَ
الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا]** [الكهف: ٤٩] وقال: **[مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ]** [ق: ١٨]. فقد وكل الله تعالى بكل إنسان، ملكين، يكتبان ما ييدر منه، من قول، أو

فعل، فلا يضيع شيء، قال تعالى: **[وَنُخْرِجُ لَهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا]** [الإسراء: ١٣]. فهذه حجة
بالغة، لا يثبت لأحد اعتراض عليها، حتى أن إذا الكافر، يريد أن يتشبث بأي شيء، كالغريق الذي
يتشبث بالقشة، فعن أنس بن مالك ﷺ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ
أَضْحَكُ". قَالَ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ "مِنْ مُحَاظَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ

(١) انظر تفسير الطبري (٥٥٤/٢٠).

قَالَ يَقُولُ بَلَىٰ . قَالَ: "فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا" قَالَ: "فِيخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي". قَالَ: "فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ" قَالَ: "ثُمَّ يُحَلِّي بَيْنَهُ وَيَبِينُ الْكَلَامَ" قَالَ: "فَيَقُولُ بَعْدًا لَكِنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُ" رواه مسلم^(١١)، قال تعالى: **[الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾]** {يس: ٦٥}

قال تعالى: **[فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾]** يُقال إن هذه الآية هي أشد آية على أهل النار. فعن عبد الله بن عمرو، قال: "لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه: **[فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾]** قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا"^(١٢)، ذلك أنهم يدعون الملائكة، ويقول قائلهم: **[وَنَادُوا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۗ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْرُوهُونَ ﴿٧٧﴾]** [الزخرف: ٧٧]، وتقول لهم الملائكة **[قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دَعْتُوا إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٠﴾]** [غافر: ٥٠]، ثم يأتيهم الجواب الشديد، الذي وقع عليهم أشد من وقع العذاب الذي هم فيه: **[فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾]** أي: ليس هذا فقط، بل إن عذابكم سيزداد.

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: إثبات البعث، وأهوال القيامة الكبرى.

الفائدة الثانية: إثبات الحساب، والفصل في الحقوق.

الفائدة الثالثة: إثبات النار، وذكر أنواع العذاب فيها؛ من عذاب حسي وعذاب معنوي.

الفائدة الرابعة: العدل الإلهي؛ فالجزاء من جنس العمل.

^(١١) صحيح مسلم (٧٦٢٩).

^(١٢) تفسير الطبري (٣٦/٢٤).